

نحو جمع التراث غير المادي في المملكة العربية السعودية وحفظه وتوثيقه

عمر بن عبدالعزيز السيف

أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض

(قدم للنشر في 12/12/1435هـ، وقبل في 28/1/1436هـ)

الكلمات المفتاحية: التراث الشفهي، جمع التراث، التراث غير المادي، السعودية، الأرشفة والفهرسة، الفولكلور.

ملخص البحث: تحاول الورقة أن ترسم ملامح مشروع علمي ثقافي يتغيًا جمع التراث غير المادي وحفظه وتدوينه في المملكة العربية السعودية. وقد بدأ البحث بعرض الجهود التي بذها العرب قديمًا لتحويل تراثنا الشفهي إلى مكتوب، ثم بيّن أهمية هذا المشروع من النواحي العلمية والوطنية والاقتصادية ودوره في تكوين الهوية الثقافية. ثم عرّج البحث على ما يواجه الشفهي من إشكاليات تجعله دون المكتوب موثوقية، إضافة إلى النظرة المستريبة منه. كما عرض البحث المحاولات الفردية والمؤسسية لجمع التراث الشفهي في المملكة، مع تبيان أسباب فشل معظمها. بعد ذلك، تناول البحث أهمية أرشفة التراث بعد جمعه، وفهرسته وفق أحدث المناهج، ولاسيما أنّ الفهرسة الجيدة ستساعد الباحثين على الاستفادة من المواد المحفوظة. وانتهى البحث بعرض أهم ملامح المشروع المقترح ومكانه ونظامه، وأهمية أن يُركّز على أهمية الفصل بين جمع التراث وتدوينه وبين دراسته وتحليله.

خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظه. (الأنباري، 1405هـ، 59) ونقل الأنباري عن ثعلب أنّ أبا عمرو الشيباني دخل "البادية ومعه دستيجتان من حبر، فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب"، (الأنباري، 78)⁽¹⁾ وقال النضر بن شميل "أقمت في البادية أربعين سنة"، (الأنباري، 73) وكذلك الأصمعي⁽²⁾ وأبو عمرو بن العلاء.⁽³⁾ وقد وصف شوقي ضيف هذا الحراك الفاعل لتدوين

كانت أولى خطوات جمع التراث الشفهي في ثقافتنا العربيّة تلك الجهود الدؤوبة التي ابتدأت بجمع القرآن الكريم، ثم الأحاديث الشريفة والأشعار وكلام العرب. فقد أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي بكر بأهميّة جمع القرآن الكريم ونقله من "صدر الرجال" بعد أن استحرّ القتل بالقرّاء في معركة اليمامة؛ (ابن الجوزي، 1405هـ، 704) فنقل من الشفهيّة، المعرضة للزوال، إلى الكتابة. كما أمر عمر بن عبدالعزيز على رأس المائة الأولى نائبه في الإمارة والقضاء في المدينة أبا بكر بن حزم أن يدوّن الحديث الذي كان النبي صلى الله عليه وسلّم قد نهى عن تدوينه (خشية اختلاطه بالقرآن الكريم)، مبيّناً سبب إقدامه على هذه الخطوة المهمّة: "فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء"، (الرافعي، د.ت، 237/1) فبدأت موجة ضخمة لجمع الحديث والعناية به والرحلة في طلبه، ولولا هذه الجهود لدرس العلم وقضى حاملوه. إضافة إلى ذلك، بدأت منافسة محتمة لجمع أشعار العرب وأخبارهم وأيامهم، ولاسيما بين مدرستي البصرة والكوفة، (السيوطي د.ت، 212/1) مربد في البصرة وكناسة في الكوفة. قال الكسائيّ للخليل: من أين علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة. فخرج الكسائيّ وأنفذ

(1) وقيل إنّ الشيباني جمع أشعار نيّف وثمانين قبيلة. (الزركلي، 2002، 296).

(2) قال الأصمعي: كنت أعشى بيوت الأعراب، أكتب عنهم كثيراً حتى أَلْفوني، وعرفوا مُرادي، فأنا يوماً مارّاً بَعْدَارَى البصرة، قالت لي امرأة: يا أبا سعيد ائت ذلك الشيخ، فإنّ عنده حديثاً حسناً، فاكتبه إن شئت، قلت: أحسن الله إرشادك؛ فأتيت شيخاً هَمّاً فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، وقال: من أنت؟ قلت: أنا عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي، قال: دُوِيتتبع الأعراب فيكتب ألفاظهم؟ قلت: نعم، وقد بلغني أن عندك حديثاً حسناً مُعجَباً رائعاً، وأخبرني باسمك ونسبك، قال نعم، أنا حذيفة بن سور العجلاني. (السيوطي، 2/308).

(3) وروى الجاحظ أنّه كانت "كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء، قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف، ثم إنّه تقرّأ فأحرقها كلّها". (الجاحظ، 1418هـ، 1/331).

الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حصري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم؛ فإنه لم يؤخذ لا من حتم، ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر والقبط؛ ولا من قضاة، وغسان، وإياد؛ لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية؛ ولا من تغلب واليمن؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان؛ ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس؛ ولا من عبد القيس وأزدعمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس؛ ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة؛ ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم؛ ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم". (السيوطي، المزهري، ص211-212).⁽⁴⁾

الشفهي: "ويستطيع من يرجع إلى الفهرست وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التألّفي الذي لا يكاد يبلغه الحصر والعدّ، فقد ترك هشام بن محمد الكلبي نحو مائة وأربعين كتاباً، وكانت كتب المدائني لا تقل عنها عدداً، بينما خلف الهيثم بن عديّ خمسين مصنفاً...". (شوقي ضيف، د.ت، 161) فقد كان المجتمع آنذاك قد بدأ يستشعر خطر اندراس التراث الشعري الشفهي، فقد قال الحجاج الثقفي على المنبر: "ذهب قوم يعرفون شعر أمية وكذلك اندراس الكلام"، وبين الحجاج وأمّية بن أبي الصلت نحو ثمانين سنة. (الأسد، 1978، 197) فاندراس الموروث خطر يهدّد الهوية، وقد أدرك أسلافنا هذا الخطر، فجمع التراث الشفهي، وتأسست أنظمة للفرز والتوثيق، ومن ثمّ الدراسة والتحليل. والرواة حينها أرادوا جمع المادة اللغوية وضعوا ضوابط ومحددات أساسية رغبة في تحقيق الغاية المنهجية لجمع المادة. ورد في المزهري للسيوطي:

"والذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربيّ من بين قبائل العرب هم: قيس، وتميم، وأسد؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتّكل في الغريب وفي الإعراب والتّصريف؛ ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض

(4) والنص الأصلي لأبي نصر الفارابي: يقول عن اللغويين العرب (ص 147): "وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم، أهل الكوفة والبصرة، من أرض العراق، فتعلموا لغتهم والفصح منها، من سكان البراري منهم، دون أهل الحضرة، ثم من سكان البراري من كان في"

الدولة الإسلامية. وبعد جمع المادة بدأت حركة تأليف غزيرة في اللغة والأدب والتاريخ والحديث لنقل الشفهي إلى الكتابة، وصدرت الكثير من المدونات التي كانت حصيلة مهمّة، أعقبتها مراحل لا تزال باقية لدراسة تلك النصوص المجموعة وتحليلها واستنباط الدلالات المخبوءة.

ولذا، لا يمكن أن نزعّم أنّ جمع التراث الشفهي وتدوينه أمور جديدة على العرب، بيد أنّ تحوّل ذلك التراث من الشفهي إلى الكتابي وهبه الاحترام والتقدير الذي يفتقر إليه التراث الشفهي الحالي.

والتراث غير المادي يشمل الأداء اللغوي الشفهي، كالآداب واللهجات والأساطير والتقاليد الشفهية والتأريخ الشفهي والحكايات؛ والفنون الأدائية، كالرقصات والموسيقى والألعاب والأناشيد والمهرجانات؛ والممارسات الاجتماعية، كالطقوس والتظاهرات الاحتفالية؛ والمعارف والممارسات، كالأعراف والرؤى الكونية والطرق التقليدية للاستشفاء والدين والمعتقدات الروحية والقيم والطرق التقليدية لحلّ النزاعات؛ والحرف التقليدية، كالعجارة التقليدية وفنون الطهي والمهارات المحددة المرتبطة بالجوانب المادية للثقافة. (Deacon, 2004) مع أنّ "الفولكلور" مفهوم يجمع حقول هذا التراث، إلا

هذا النصّ يبيّن أنّ الإخباريين وضعوا محدّدات صارمة للأخذ، فالغاية التي يريدون تحقيقها جمع اللغة الصافية من العرب الخُلص الذين لم يختلطوا بالأعاجم، ولذا قد يُردّ البدويّ بسبب مخالطته أهل المدن،⁽⁵⁾ ولكنّ البدويّ مفضّل على الحضريّ بسبب قلة اختلاطه بغير العرب.⁽⁶⁾ كما حدّدوا ضوابط زمنية بتحديد عصر للاحتجاج، على اعتبار أنّ السليقة اللغوية تعيّن بعد اختلاط العرب بغيرهم مع اتّساع

=أوسط بلادهم، ومن أشدهم توحشا وجفاء، وأبعدهم إذعانا وانقيادا، وهم: قيس، وتميم، وأسد، وطيم، ثم هذيل؛ فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب، والباقي فلم يؤخذ عنهم شيء؛ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم، مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم، من الحبشة والهند والفرس والسريانيين، وأهل الشام، وأهل مصر. (الفارابي، د.ت، 147).

(5) رفض الأصمعي قبول الاحتجاج بذى الرمة لأنّه "طالما أكل المالح والبقل في حوانيت البقالين". (ابن جنّي، د.ت، 295)

(6) قال أبو الفضل الرياشي في معرض تفضيله البصريين على الكوفيّين: "إنما أخذنا اللغة عن حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد، أصحاب الكواميخ، وأكلة الشواريز". (السيرافي، 1374هـ، 68).

وهو التراث الذي يمكن تحليله للوصول إلى الأنماط المؤثرة في اللاوعي الجمعي.

والدول المتحضرة اليوم تدرك أهمية جمع التراث الشفهي لحماية التنوع الثقافي الذي يواجه خطر تسارع وتيرة العولمة التي تمثل تهديداً خطيراً لوجوده، ولا سيما في ظل ضعف قدرة المجتمعات حاملة هذا التراث على حفظه والعناية به، مما ينذر باختفاء بعض أشكال التراث الثقافي غير المادي في الدول غير القادرة على حمايته والعناية به. (Nwabueze, 2013, 182) وتتعاظم هذه الأهمية في بعض بيئات الجزيرة العربية التي كانت لقرون على هامش التاريخ، فظلّ تراثها شفهيّاً لم يُدوّن منه إلا أقلّ القليل، وكثيراً ما كان هذا الأقلّ بأقلام بعض الرحالة الذين توالى رحلاتهم بعد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكانت هذه الرحلات لأسباب محدّدة، وتوجّهت تلك الكتابات لخدمة هذه الأسباب.

كما أنّ الراغبين في دراسة تراث الجزيرة العربية في الجامعات العربية والغربية يعانون من صعوبة العثور على هذا التراث بسبب عدم تدوينه، ولهذا فإنّ مراكز الأبحاث العالمية تضطر إلى إهمال هذا التراث وتّجه إلى مناطق أخرى تتوافر فيها المادة التراثية المدوّنة. وقد تستند في بعض الأحيان إلى مصادر ثانوية عن تراث الجزيرة العربية، وهي مصادر لا تعكس بالضرورة

أنّ ثمة صلة بين التراث الشفهي من جهة واللغة والأدب وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإنسان والدين، والكثير من العلوم من جهة أخرى.

إنّ صون التراث الشفهي وحفظه والعناية به غاية تسعى لها الأمم المتحضرة اليوم، وهي عملية مستمرة تعتمد على الإنسان الذي يسعى لفهم ذاته ومجتمعه ومحركات ثقافته وتبيّن ملامحها وسماتها، ولا يمكن أن تتأتّى هذه الغاية بدون تحديد خطوات يمكن تنفيذها وأهداف ممكنة التحقيق في مشروع شامل لجمع التراث غير المادي.

1- أهمية جمع التراث الشفهي⁽⁷⁾

يعدّ الموروث الشفهي تراثاً جمعياً يُحرّك أفراد المجتمع، دون أن يلغي دور الفرد/السارد الذي يكون، غالباً، خيطاً ملوّناً في نسيج زاهٍ، أو دور الأبطال الذين يصنعون الأحداث المهمة، التي تكون غالباً نتاج مجتمع بأكمله. كما أنّ الثقافة الشفهية تحتفظ بتفصيلات ومعلومات ومهارات وعادات لم تُدوّن، ومن ثمّ فالجوانب الأهمّ عن مجتمع ما كامنة في تراثه الشفهي،

(7) مع أنّ ثمة اختلافات طفيفة بين مصطلحي التراث الشفهي والتراث غير المادي، الذي يشمل الرقصات والموسيقى وغيرهما، إلا أنّ الباحث يستعملهما في هذا البحث بمعنى مترادف.

الجاهلي، أو يُعيد تفسير ما فهم خطأ من تراثه.⁽⁸⁾ فإذا كان جمع التراث الشفهي مهمًا في أي بيئة وأي ثقافة؛ فإن أهميته تتعاضد في بيئات الجزيرة مهد الثقافة العربية والشعر العربي، والحاضر الأول للدعوة الإسلامية.

إضافة إلى الأهمية الشاملة، فإن لكل فرع من فروع التراث غير المادي أهميته العلمية التي لا تخفى، فجمع اللهجات العربية وحفظها وتدوينها، على سبيل المثال، يسهم في فهم بنية اللغة الفصحى وإمكاناتها الدلالية وطرق الأداء الصوتي. والتأريخ الشفهي يسهم في إعادة قراءة التاريخ المكتوب، وسدّ الفجوات بين الأحداث. كما أن التأريخ المكتوب قد يكون نتيجة لتوجه سياسي أو ثقافي أو أنه مُدَوّن "من وجهة نظر المنتصر"، (مسعود ضاهر، 1982، 193) في حين أن التأريخ الشفهي المتواتر أكثر تأكيدًا على صدق الحادثة التاريخية. كما أن الأمثال والحكم تكشف منظومة القيم الأخلاقية التي تحرك سلوك الإنسان. (العجمي، 2007، 69) فكل فرع من فروع التراث الشفهي جُملَةٌ من المزايا التي يحقّقها جمع التراث وحفظه وتدوينه.

الواقع الحقيقي لذلك التراث وللإنسان المنتج له. وتنبع الأهمية العلمية لتأسيس مشروع حفظ التراث الشفهي، على مستوى المملكة العربية السعودية، من أهمية الموروث الشفهي الذي يُعدّ ذاكرة الإنسان ومرجع الأخلاقي ومحركه السلوكي، وهو الذي يصوغ رؤية الإنسان للكون، وهو من المعطيات الأساسية في حضارة الأمة ومقدّراتها. ومن ثم لا يمكن تحقيق الغاية العلمية إلا إذا راعى المشروع المقترح مختلف عناصر التراث الشفهي في المملكة العربية السعودية بما يتضمنه من قيم أخلاقية تتمثل في العادات والتقاليد والأعراف، وما يحويه من موروث سلوكي تكشفه المادة الشفهية من حكايات وقصص وأساطير وأمثال ومواعظ وأهازيج وألعاب واحتفالات وغيرها. إن هذا الإرث يكشف كذلك تاريخ المكان وما يحمله من سمات خاصة تتعلق بمختلف أساليب الحياة التي يعيشها الناس وتكيفهم مع ظروف البيئة الطبيعية.

إن تراث الجزيرة العربية امتداد للتراث العربي الجاهلي الذي تولّى دراسته باحثون بعيدون عن بيئاته، والتراث الشفهي قد يكشف جوانب من الأدب

(8) وقد توسّع الباحث في توضيح هذه الفكرة في بحثه "نحو فهم الشعر الجاهلي وتفسيره وتأويله"، وهو بحث مخطوط سيُنشر قريبًا.

- ونظرًا لأنّ هذا التراث الضخم مرتبط بذاكرة الناس الشفهية، وهي ذاكرة معرضة للزوال بسبب الوفاة أو النسيان أو كبر السنّ، يضاف إلى ذلك أن انتقال ما تحمله الذاكرة من معلومات للأجيال اللاحقة ليس متحققًا بالضرورة بكامله وبشكل صحيح؛ ولهذا فإن التأخر في جمع هذه المادة يعني خسارة ثقافية وعلمية تحدث كل يوم. ومن ثمّ، يسعى المشروع للإفادة من جميع العناصر ومن مختلف المصادر سواء تلك التي تمثل بالضرورة نماذج لإنسان ذلك المكان والزمان أم تلك التي تملك مادة يمكن استثمارها في الدلالة على معطيات ثقافية ثابتة أو متغيرة. إنّ جمع التراث الشفهي وفهرسته بشكل صحيح في مختلف مناطق المملكة سيساعد الباحثين في الجامعات السعودية وفي المراكز البحثية على إعداد آلاف الدراسات التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية واللغوية والأدبية، وستبنى هذه الدراسات على مصادر جديدة لا تقلّ في أهميتها عن المصادر التقليدية المكتوبة التي أُشبعَت بحثًا، وأدّت في بعض أجزاءها إلى انغلاق معرفي جعل الباحثين يعيدون اجترار الموضوعات نفسها مستعينين بالمصادر ذاتها التي استعان بها من قبلهم للوصول إلى النتائج عينها التي سبق أن توصل إليها، وهذا بحدّ ذاته هدر للجهد والوقت بلا طائل.
- كما أنّ ثمة أهمية وطنية للمشروع تتمثل في الآتي:⁽⁹⁾
- التعريف بالهوية الوطنية التي تحتفظ بها كل منطقة والكشف عن علاقة الإنسان بالبيئة ومعطياتها وما يتصل بذلك من إرث فكري خاصّ أو عام مشترك بين المناطق، وبين المملكة وغيرها.
 - تعميق الانتماء للأرض بإيجاد رابط للناس مع مناطقهم، ولاسيما في ظل تنامي ظاهرة الهجرة إلى المدن والعواصم.
 - بيان التنوع الثقافي في المجتمع والاختلاف في اللهجات والعادات والتراث من منطقة إلى أخرى مما يسهم في تعزيز سبل تطوير هذا التنوع ودعمه لصالح الوطن واثراء مخرجاته الثقافية، والتنوع مؤشر على ضخامة الموروث الذي يتمتع به وطننا، وعلى روح التسامح والتواصل والتعايش الذي مكّن هذه الأطياف من العيش المشترك.
 - الكشف عن الجوانب غير الرسمية في حياة الشعب السعودي التي تمثل اهتماماته الثقافية والاجتماعية وما يرافقها من متغيرات في الحياة أو في
-
- (9) من مسودة مقترح سبق أن أعدّها ناصر الحجيلان عام 2007 عندما كان نائباً لرئيس مجلس إدارة جمعية اللهجات والتراث الشعبي في جامعة الملك سعود.

التصورات المنعكسة على استجابة الإنسان وتعاملاته التي تبرزها بعض المواقف النفسية في الفرح والسعادة أو في الحزن والقلق. ومن خلال تلك المشاعر الإنسانية العالمية تظهر الصورة الواقعية لإنسان المنطقة. كما يمكن أن يحقق المشروع مكاسب اقتصادية، يمكن إجمالها في الآتي:

- تعريف السياح بالمنطقة وما تحويه من عادات وقيم ومواقع أثرية مرتبطة بتاريخ وأحداث لها دلالات ثقافية لدى أهل المنطقة، ومن المعلوم أن تراث أي بلد من أهم المقاصد التي يتغيا السياح التعرف عليها، وصناعة السياحة عالمياً تعتمد إلى حد كبير على رغبة السياح في التعرف على الآثار والمعالم، وثقافات أهل البلد، وكنوزها البشريّة، وما تحتزنه من صور وأفكار. (Boniface, 1993, Introduction)

- إبراز الثروات والموارد الطبيعية في المنطقة كالأشجار النادرة والصخور والمعادن والأعشاب الدوائية وغيرها من الموارد التي يمكن الاستفادة منها في الصناعة والإنتاج.

- تعريف التجار ورجال الأعمال من خارج المنطقة بأهل المنطقة وعاداتهم السلوكية والغذائية والصحية وحرفهم مما يعطي فكرة واضحة عن المنطقة وما تحتاجه من مشروعات مناسبة.

أثار كثير من الباحثين بعض الإشكاليات المتعلقة بالتراث الشفهي، فالباحث عبدالله العسكر يشير إلى أن الأجيال الحديثة يظنون أن الكلمة المكتوبة أو المدونة هي الحقيقة فقط. (العسكر، 1428هـ، 96) والحقيقة أن هذه النقطة ليست مقصورة على الأجيال الحديثة، بل هي مرتبطة بما يمكن تسميته "تقديس الكتابة"، فثمة ربط بين الكتابة والمقدس، ففي تراثنا العربي بلغت الصلة بينهما أن اشتقت كلمة "أسطورة" من السطر، وأورد القرآن الكريم تعبير "أساطير الأولين" الذي فسره الألوسي بأن أساطير تعني "أباطيلهم التي سطورها في الكتب من غير أن يكون لها حقيقة"، (الألوسي، د.ت، 57/26) ويرى وليد مدفعي أن المقصود أولئك الكفار الذين كانوا يشبهون الآيات الكريمة بأساطير الأولين؛ أي بالنصوص التي يتعبدون بها في المعابد". (مدفعي، 2004، 18) فهذا التفسير يستحضر المعنى اللغوي لكلمة "سطر" المرتبط بالكتابة. كما أن الخط المسند الحميري العربي اكتسب صفة القداسة، (عجينة، 2005، 205)

روايات شفاهية متناقلة قبل أن تُدوّن، وعلى هذا الأساس فإنّ الوثائق الشفاهية لا تقلّ أهميّة عن الوثائق المدوّنة"، (ضاهر، 185) بيد أنّ الشفهي قد يتحوّل إلى القداسة والاحترام عندما يُكتب ويستقرّ.

ويبدو لي أنّ السبب هو إشكاليّة الفناء والخلود التي مثّلت لغزاً مخيفاً للإنسان، فالشفاهي يزول بزوال صاحبه، في حين أنّ المكتوب يبقى. ومما لا شكّ فيه أنّ الكتابة تقيّد للشفاهي، واختصار مخلّ لظروف الكلام وسياقاته ونبراته، (عبدالله إبراهيم، 2005، 648) وللأصوات وقوانينها، مثل النبر والتنغيم، والإدغام والفك، والهمز والتسهيل، والقصر والمدّ، وهي تدوين لأجزاء محدّدة من العملية الاتّصالية المعقّدة. وربّما كان ذلك أحد أسباب عزوف الرواة الأوائل عن الصحفيّين الذين يتلقّون الشعر والتراث من صفحات الكتب فحسب، (ابن سلام، 1422هـ، 29) فهم لا يتلقّونه تلقياً مثاليّاً، مما يسوّغ ذلك العزوف. وفي المقابل، تُبقي الإمكانيات التقنيّة الحديثة للشفهي معظم خصائصه وسماته، مع الاحتفاظ بها للمكتوب من خصائص.

لقد لفت فرديناند دي سوسير (1857-1913) النظر إلى أوليّة الكلام الشفاهي الذي يرفد كلّ اتصال لفظي. كما لفت النظر إلى الميل الدائم حتى بين

فالكتابة ارتبطت بالقداسة وبصحف إبراهيم وموسى وباللوح المحفوظ، ومن ثمّ اكتسبت الكلمة المكتوبة سحرًا قدسيًا خاصًا لا تزال ظلاله باقية بسبب الرواسب التي تحتفظ بها الثقافة.

تناقشت مع أحد الباحثين المتخصّصين في التأريخ الحديث، واختلفنا في تأريخ نشأة إحدى القرى النجدية، ونقلت له المرويّات المتوتّرة عند معمرى هذه القرية التي نقلوها عن آبائهم وأجدادهم بشأن تأريخ نشأة قريتهم، ولكنّه قلّل من أهميّة هذه الروايات وجعلها خرافات لمجرّد أنّ المؤرّخين النجديين، ولاسيما عثمان ابن بشر، لم يذكروها. ومع أنّ ابن بشر عاش في القرن الثالث عشر الهجري (ت1290)، والنشأة كانت في منتصف القرن الحادي عشر؛ أي أنّ ابن بشر سيعتمد -لو تناول الموضوع- على روايات شفهيّة، إلا أنّ هذا الصديق قلّل من أهميّة الرواية الشفهيّة وسفّه من يعتمدون عليها. هذه الحادثة أكّدت لي تأصّل النظرة المستريبة من الشفهي من جهة، والنظرة المُبجّلة للمكتوب إلى حدّ الإيهان الأعمى به. وقد أشار مسعود ضاهر إلى هذه الإشكاليّة حين كتب: "إنّ من يظنّ أنّ الروايات الشفاهية لا تصلح كوثائق ومستندات لدراسة التاريخ، قد يتراجع عن رأيه إذا تذكّر أنّ أغلب الوثائق المدوّنة كانت في الأصل

الدارسين إلى التفكير بالكتابة بوصفها الشكل الأساسي للغة، ولاحظ سوسير أن للكتابة فوائد وعيوباً وأخطاراً. (أونج، 1994، 41) وإذا كان التراث المكتوب عرضة للتزييف والعيوب والأخطار؛ فإنّ الشفهي التاريخي، مثلاً، عرضة لنسيان السارد أو مبالغته في إعطاء نفسه دوراً ذا قيمة، (بيركس، 2004، 18) أو الذاتية في سرده للأحداث من حيث أهميتها وترتيبها وتقويم وقائعها، مما جعل المنهج الوصفي اللغوي الحديث يتّجه إلى اللغات الحية لتدوينها، مما أعاد الباحثين إلى اللهجات وما فيها من كنوز، أراها رافداً مهماً وأساسياً للفصحى.

ولتتحقق الغاية العلميّة والثقافيّة لجمع الموروث؛ لا مناص عن وضع منهج واضح لجرح الرواة الشفهيّين وتعديلهم، فالراوي قد تملكه الحميّة القبليّة أو المذهبيّة أو المناطقيّة أو مشاعر المحبّة والكراهيّة، ومن ثمّ لا يمكن أخذ أقوال الرواة على أنّها حقائق لا تقبل النقض. ولكنّي لا أوافق الباحثين الذين يطلبون من جامع التراث نقد المُحاور والتأثير عليه في أثناء تسجيل روايته ليعود إلى دائرة الحقيقة، كما يقول بعضهم، (عبدالرحيم، 1422هـ، 13-14) ولكن المطلوب -في نظري- أن يعطي جامع التراث الحرّيّة للفرد ليتحدّث بحريّة دون توجيه أو تحذير، ثم يدوّن

المُحاور ملحوظاته وتحفظاته ورأيه المعتمد على أدلّة موضوعيّة، كالمقابلة بين النصوص مثلاً، ويترك للباحث دراسة ما يريد. وثمة شروط أساسيّة لا يمكن تجاهلها، مثل الصدق والعدالة، وسلامة القوى العقليّة، وقوّة الذاكرة، والتحمل والأداء، ومعاصرة الحدث،⁽¹⁰⁾ وهذه الشروط لا يستطيع الباحث تحديدها بدون جامع التراث، فهو الأقرب والأكثر قدرة على تحديد هذه الأمور، ومن ثمّ لن تكون مهمّة جامعي التراث حمل اللاقط وتوجيه الأسئلة، بل لا بدّ من دراسة قدرات المُحاور وأخلاقه وسماته وعلاقته بالحدث، ثم كتابة تقرير منهجيّ كامل عن المحتوى.

والتأريخ الشفهي، وهو أحد أهمّ تقسيمات التراث الشفهي، يسدّ الفجوات التي يُحدثها التأريخ المكتوب، ولاسيما أنّه يمكن أن يُستقى من مجموعة كبيرة من الأفراد، في حين أنّ المكتوب -في الغالب- له مؤلّف واحد. كما أنّ الرواية الشفهيّة تشمل جميع جوانب الموضوعات المراد تغطيتها، بل إنّها تزوّد الباحث بمعلومات إضافيّة لم تكن في حسابانه. وهي في الوقت نفسه تفيد الباحث في التعرّف عن قرب على الشخصية الساردة، ومن ثمّ يستطيع تقويم شخصياتهم بما يمكنه

(10) يمكن الاستزادة من: (العاور، 2002، ص 62-71).

3- محاولات لجمع التراث الشفهي

يمكن تقسيم الجهود المبذولة لجمع التراث الشفهي في المملكة العربية السعودية إلى مستويين: أولهما: الجهود غير الرسمية:

بدأت جهود توثيق التراث غير المادي في المملكة في مرحلة مبكرة نسبياً، وتفاوتت الجهود من مجرد نقل الموروث الشفاهي إلى الكتابي، إلى جمع التراث وصونه وتدوينه. وقد بدأ الاهتمام بتراث الجزيرة العربية عموماً في العصر الحاضر المستشرقون الذين وفدوا إلى بيئات الجزيرة العربية ومحيطها السكاني، فكان من أوائل المستشرقين الذين جمعوا التراث الشفهي الفنلندي جورج أوغست والين Georg August Wallin (1811-1852)، الذي اختلط بالبدو، فسهّلوا عليه دراسة لهجاتهم وعاداتهم وأعرافهم، (العقيقي، 1964، 3/ 1040) ولذا جمع ثماني قصائد في أثناء إقامته في الجوف، ونشر عينات لأنثولوجيا قصائد عربية معاصرة جمعت من البادية، وهو يبدأ بكتابة القصيدة بالأحرف العربية، ثم يكتبها كتابة صوتية مستخدماً الرموز اللاتينية، وبعد ذلك يترجمها إلى الألمانية، مع معلومات عن الشاعر والمناسبة ومعلومات عن الراوي، إضافة إلى دراسة لغوية مفصلة. (الصويان، ، 1996، ج1) ونشر الألماني

من الحكم على إجاباتهم، (الداود، 1422هـ، 89) وجرحهم وتعديلهم.

إضافة إلى ذلك، يعاني الشفهي من ارتباطه بالعامي الذي يُنظر إليه بدونية وريبة في آن واحد، مقابل الفصح الذي يُنظر إليه بقديسية من جهة ونخبوية من جهة أخرى، فثمة ربط بين الشفهي والعامي مما يجعل الاهتمام به عند بعض المثقفين نكوصاً معرفياً يثير الأسئلة والريبة، ولاسيما أنّ هناك من يربط الاهتمام بالعامي بدعوات تنغيّاً هدم الفصحى لإحلال العامية. ومن المؤرخين، على سبيل المثال، من يقبل الشفهي لدراسة المجتمعات البدائية التي لم تعرف التدوين، ومن ثمّ فهم لا يقبلون النصّ الشفهي في وجود النصّ المكتوب، (ضاهر، 186-187) وهذا يكشف نظرة مزدوجة للشفهي، فالكتابة لم تُحط بتراث أيّ ثقافة، ولاسيما أنّ ثمة جوانب ثقافية بقيت في الهامش لدى جميع الأمم.

فالاتهام بالتراث الشفهي غاية عُليا لا يمكن تحقيقها بدون تصحيح المفاهيم الخاطئة وإزالة الشوائب العالقة في أذهان بعض أبناء المجتمع، من مثقفين وغيرهم، عن التراث الشفهي، لكي يستوعب المشروع الجميع ويستوعبوه ويدركوا أهميته، ويساعدوا على تحقيق غاياته.

الحياد إلى التعاطف مع المجتمعات العربية. ومن الرحالة الذين نقلوا ذلك التراث ويليام بالغريف William Palgrave وتشارلز داوتي Charlez Doughty، فقد وصفت كتاباتهم الجزيرة وأحداثها وأهلها وطبائعهم، ولا شك أن أهم غايات المستشرقين والرحالة إلى الجزيرة العربية تدوين التراث غير المادي، مع اختلاف مجال كلمتهم.

وبدأت الكتابات بأقلام عربيّة وسعوديّة في النصف الثاني من القرن العشرين، وتنوّعت أسبابهم لجمع التراث، فمنهم من عني بجمع الشعر النبطي وتدوينه وأحياناً دراسته، فقد ألف محمد سعيد كمال الأزهار النادية من أشعار البادية في ثمانية عشر جزءاً، وجمع عبدالله ابن خميس قصائد شفاهية ليؤلف كتبه راشد الخلاوي، وأحاديث السمير، والشوارد، وغيرها، وجمع أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري أشعار الدواسر، وجمع خالد الفرج ديوان النبط: مجموعة من الشعر العامي في نجد، وعبدالله الحاتم خيار ما يلتقط من شعر النبط، وعبدالله اللويحان روائع من الشعر النبطي، وصدرت سلسلة من آدابنا الشعبيّة في الجزيرة العربيّة لمنديل الفهيد، وأبطال من الصحراء لمحمد الأحمد السديري. كما جُمعت الحكايات الشعبيّة، كما في كتاب أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب. وكذلك

يوهان جوتفريد فيشتاين JohannGottfried Westzstein عام 1860 مخطوطات شعرية بعنوان ملامح لغوية من مضارب البادية السورية. (الصويان، ، 1996، ج2) ورحل المستشرق ألبرت سوسين Albert Socin إلى مصر وفلسطين وسوريا والعراق، (العقيقي، 880/3) وجمع أشعاراً وأخباراً من بوادي العراق والشام، مع ترجمات لغوية وأثنولوجية مفصلة، وقد كان معظم الرواة الذين تلقى عنهم من جزيرة العرب. (الصويان، ، 1996، ج1) وتكررت رحلات الشيكوسلوفافي ألّويز موزيل Alois Musil عام إلى الشرق العربي من عام 1896 إلى 1902، واشتهر بين قبائل الرولة بالشيخ موسى الرويلي، وكتب سلسلة كتب عن رحلاته إلى الجزيرة العربية، من أهمها كتابه عن قبيلة الرولة وعاداتهم، ويضمّ الكتاب قصائد و"سوالف" ومعلومات عن حياة البدو. (العقيقي، 1036/3) إضافة إلى جهود كارلودي لاندبرج Carlo de Landberg، وروبرت مونتان Robert Montagne، وهيكي بالفا Heikki Palva. كما كان للرحالة الغربيين جهود جيدة في نقل ذلك التراث إلينا، ومن أشهرهم السويسري يوهان لودفيج بوركهارت Johann Ludwig Burckhardt الذي درس المجتمعات البدوية بمنهجية امتازت بالحياد والموضوعية، بل وربّها خرج من دائرة

والكتب التي وردت مجرد أمثلة محدودة لجهود مهمة وتأسيسية، حفظت أشعارًا وأمثالًا وحكايات وموروثًا ما كان له أن يبقى لولا تلك الجهود، ونقلت أجزاءً مهمة من التراث الشفهي من شفاه الرواة إلى بطون الكتب. بيد أن تجربة الأنثروبولوجي سعد الصويان، أستاذ علم الإنسان بكلية الآداب في جامعة الملك سعود تبقى الأبرز والأكثر علمية، حيث أشرف بين عامي 1983-1990 على مشروع جمع الشعر النبطي من مصادره الشفهية، قابل فيه الصويان المسنين من رواة البادية وجمع كل ما يتعلق بحياة البادية من أشعار وقصص وأنساب ورسوم وديار وموارد ومعلومات إثنوغرافية وتاريخ شفهي. إضافة إلى ذلك، أشرف بين عامي 1991-2001 على المشروع الوثائقي الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية الذي صدر عن دار الدائرة للنشر والتوثيق في اثني عشر مجلدًا يقع كل منها في حدود خمسمائة صفحة، يتناول كل مجلد منها جانبًا من جوانب الثقافة التقليدية من الطب الشعبي والعطارة والألعاب الشعبية والعمارة التقليدية والفلاحة والحرف اليدوية. وشارك في تأليف هذه المجلدات وكتابتها عشرات المختصين والأكاديميين والمهتمين بمختلف جوانب الثقافة الشعبية والحياة التقليدية في مختلف مناطق المملكة

الأهازيج الشعبية كما في الأغاني الشعبية في المملكة العربية السعودية لهند باغفار. وكانت هناك جهود في جمع الأمثال الشعبية، مثل جهود أحمد السباعي في الأمثال الشعبية في مدن الحجاز، وموسوعة الأمثال الشعبية للجهيمان، والأمثال العامية في نجد لمحمد العبودي. أو التأريخ الشفهي، مثل عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان ابن بشر، وتاريخ ابن لعبون لحمد بن محمد ابن لعبون. أو الأنساب مثل جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد ومعجم قبائل المملكة لحمد الجاسر، والمنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب لعبدالرحمن بن حمد المغيري. ومنهم من كانت غايته تأليف معجم لغوي، مثل كلمات قضت لمحمد العبودي، وفصيح العامي في شمال نجد لعبدالرحمن زيد السويداء ومن غريب الألفاظ المستعمل في قلب جزيرة العرب لعبدالعزيز الفيصل، ومعجم اللهجات المحلية دراسات لغوية مقارنة لمحمد بن أحمد عقيلي. وهناك من جمع المرويات الشفهية لتأليف أطلس جغرافي، مثل صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار لمحمد بن عبدالله ابن بليهد، والمعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية الذي تناول مؤلفوه أقاليم المملكة العربية السعودية.

آنذاك الأمير فيصل بن فهد (رحمه الله) في مطلع الثمانينيات من القرن السابق بأن يُحطَّط لمسح ميداني يتغيًا جمع التراث الشفهي، واستغرق العمل أكثر من عامين. وقد ورثت وزارة الثقافة والإعلام تلك التسجيلات بعد انفصال قطاع الثقافة عن الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ووقَّعت الوزارة اتِّفاقية التراث الثقافي، ثم صدر قرار من مجلس الوزراء يقضي بأن تتولَّى وزارة الثقافة والإعلام والهيئة العامة للسياحة والآثار حصر جميع موادَّ التراث غير المادي، فاستحدثت الوزارة إدارة مستقلة للتراث غير المادي تضمُّ وثائق شفهيَّة وتسجيلات وبرامج تراثيَّة ومهرجانات وفعاليَّات وأهازيج للبنائين والحرفيين، وبدأت الأرشفة بناء على الاتِّفافيَّة مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو).

3- المهرجان الوطني للتراث والثقافة بالجنادريَّة: وقد بدأ عام 1405هـ/1985م، وحرص المهرجان في بداياته على التسجيل مع بعض كبار السن عن الصناعات والحرف والحياة القديمة في مناطق المملكة، ولكنَّ تلك التسجيلات -حسب علمي- بقيت في أرشيف مجلة الحرس الوطني.

4- مكتبة الملك فهد الوطنيَّة: بدأت المكتبة بمقابلة بعض كبار السن من الأدباء المعروفين

العربية السعودية. كما شارك الصويَّان في تأليف بعض المجلدات، مثل مجلد الإبل ومجلد القنص والصيد. وكان من نتيجة هذه الجهود أن أصدر الصويَّان الكثير من الكتب والبحوث التي اعتمدت على تلك التسجيلات، منها كتاب الصحراء العربيَّة: شعرها وثقافتها، وكتاب أيام العرب الأواخر: أساطير ومرويَّات شفهيَّة من الجزيرة العربيَّة. بل إنَّ الصويَّان عرض جزءاً من تسجيلاته في برنامج إذاعي في إذاعة MBC_FM عام 2006، قبل أن يتوقَّف بقرار سياسي، بسبب ما تثيره التسجيلات من حساسيَّات قبليَّة وربِّها عداوات مندثرة.

ثانيًا: الجهود الرسميَّة:

1- مركز أبحاث الحج: وهو مركز نشأ عام 1395هـ/1975م، وقد أدار المركز في بداية إنشائه الدكتور سامي عنقاوي وكان يتبع جامعة الملك عبدالعزيز، ثم انتقل المركز إلى جامعة أم القرى بعد أن انفصلت الجامعتان. وسجَّل المركز لقاءات مطوَّلة مع الزمازمة والمطوِّفين وغيرهم، ولكنَّ مآل تلك التسجيلات غير معروف.

2- وزارة الثقافة والإعلام: كان للرئاسة العامَّة لرعاية الشباب جهود مميَّزة في ميدان توثيق التراث الشفهي، حيث وجَّه الرئيس العام لرعاية الشباب

مع كبار السن، وتركزت اللقاءات على جانبين: الأدب الشعبي والطب الشعبي، وكان القائمون على المشروع يستهدفون تأليف معجمين عن الفولكلور وعن الطب، ولا يزال المشروع قائماً.⁽¹¹⁾

7- أعلن هذا العام (1435هـ/2014) قيام مركز أحمد باديب للاستشارات الإعلامية، ومن ضمن أهدافه "توثيق الموروث الثقافي (التاريخي والأدبي والاجتماعي) والموروث الفني (الفلكلور والأهازيج الشعبية والحكايات الشفهية) لمدينة جدة على وجه الخصوص، وفق منهج علمي، وإصدار ذلك في مصنفات ورقية وإلكترونية رقمية. (د.م، أول اجتماع للمجلس الاستشاري لمركز أحمد باديب، 2014).

ملحوظات عامة على الجهود المبذولة

1- يُلاحظ أن الجهود المبذولة متفرقة، وتبدأ بقرار ولا تلبث أن تتوقف إذا أدركت الجهة أن المشروع أضخم من إمكانياتها، ومن ثم لا بد من مظلة واحدة تتسم بالعلمية والملاءة المالية والاستقلال لتلملم شتات الجهود.

(11) استقيت المعلومة من الإخوة في فرع جمعية الثقافة والفنون في الباحة، مع العلم أن كاتب هذه السطور عضو مجلس إدارة في الجمعية.

وغيرهم، وكانت البداية في شهر جمادى الأولى عام 1415هـ. وقد سجّلت المكتبة 370 مقابلة، ولكن جهود المكتبة في هذا الشأن توقفت، بسبب تداخل الاختصاص مع دارة الملك عبدالعزيز. وهي الآن تحتفظ بالتسجيلات بسبب توقيعها اتفاقيات مع الرواة بعدم نشر أي شيء يتعلّق بالتسجيلات إلا بعد وفاة تلك الشخصيات.

5- دارة الملك عبدالعزيز: وهي أهم الجهات التي آل إليها الاهتمام بالتراث الشفهي، وقد بدأت نشاطها عام 1416هـ بالتسجيل مع بعض الرواة الذين التقوا الملك عبدالعزيز رحمه الله، ثم بدأت بالاتجاه نحو توثيق التاريخ الشفهي للملكة بشكل عام، وقد بلغت المقابلات المسجّلة بالصوت والصورة ستائة مقابلة. (د.م، تقرير عن مركز التاريخ الشفوي، 198) ومع أن الباحث التاريخي عبدالله العسكر أشاد بالعمل في الدارة، وبأنه "يقوم على أساس علمي متين"، (العسكر، 104) إلا أن المشروع يحتاج إلى الخروج من التاريخ الشفهي إلى جمع التراث كاملاً، وهو مشروع ضخم، ويبدو أن الدارة تعتمز التوسع لتوثيق التراث الشفهي.

6- جمعية الثقافة والفنون: وقد بدأ فرع جمعية الثقافة والفنون بالباحة عام 2008 بتسجيل لقاءات

4- الأرشفة والفهرسة

من المعروف أنّ المرحلة الثانية من مراحل جمع التراث الشفهي وحفظه وتوثيقه ودراسته هي مرحلة الأرشفة والفهرسة، وهي مرحلة مهمّة ودقيقة تعقب مرحلة جمع المادة، وتتطلب نظاماً دقيقاً ومفصلاً يتوافق مع الأنظمة العالمية المعمول بها، ويتناسب وأجهزة الحاسوب التي ستتولى حفظها ومن ثمّ استدعاءها، فأبّى خلل في فهرسة هذا التراث سيسبّب مشكلات لا تنتهي في قراءته وتلقيه ودراسته وتحليله، مما قد يني أحكاماً خاطئة ومضللة، ولاسيما أنّ الفهرسة تهدف إلى إتاحة المادة "للمستفيد بأيسر الطرق وبأقصر وقت ممكن". (همشري، 1422هـ، 281) وفي المقابل، ستبيّن الفهرسة المثاليّة ما يتكرّر من عناصر تُعدّ محرّكة لثقافة المجتمع ومؤثّرة فيها ومثّلة لها، مع استبعاد تأثير الحالات الشاذة غير المتوافقة مع معطيات الثقافة وخصائصها. ولا يكون الاستبعاد إلا على أسس علميّة محدّدة.

في بحثه الموتيف والطراز: مفاهيم أساسية لتحديد المأثور الشعبي الشفهي ودراسته؛ يتناول حسن الشامي أسس الأرشفة والفهرسة، مفرّقاً بين الأرشيف والفهرست، فالأرشيف هو المكان الذي تُحفظ فيه المادة الميدانية وما شاكلها من صور افتراضية للثقافة،

2- من أبرز الصعوبات التي تواجه توثيق التراث الشفهي أنّ بعض الضيوف قد يتطرقون إلى أمور محظورة سياسياً أو دينياً أو أخلاقياً أو اجتماعياً، فيتدخل الرقيب، وكلما زادت سطوة الرقيب ضعف تمثيل العيّنة لتراث البلد وثقافته. بل إنّ المقابلة قد تُوجّه للحديث في اتّجاه يخدم تياراً أو اتّجاهاً، وهذا الأمر يضعف القيمة العلميّة للتسجيلات.

3- ثمة مناطق مهملة ولم يُعنَ بجمع تراثها الشفهي، مثل جازان، ومن ثمّ لا بدّ أن يمتدّ الاهتمام إلى جميع مناطق المملكة.

4- لا بدّ أن تتأسس علاقة وطيدة بين المشروع وبين الجامعات ومراكز الأبحاث ليتسنى الاستفادة منه، ولن يتأتّى ذلك إلا ببث الوعي بالقيمة العلميّة للتراث الشفهي، وإزالة اللبس العالق في الأذهان بأنّ الشفهي أقلّ قيمة من المكتوب.

5- بعد الانتهاء من جمع المادة من مصادرها الشفهيّة؛ لا بدّ أن يُعنى بنظام الأرشفة والفهرسة عناية كبيرة، وعلى الجهات المعنية أن تُصدر فهارس واضحة لما جمعت، ليتمكّن الباحث من الاستفادة من تلك الموادّ.

6- لم تُتّح الموادّ الموثّقة للباحثين، ولم تُربط بالجامعات ومراكز الأبحاث ليتسنى الاستفادة منها.

ضوابط لعمليات الفهرسة التي أُنْجِثَتْ للدقة والإحكام.

5- ملامح المشروع المقترح

يدور جدل غير منته في الأوساط العالمية عن الجهات المعنية بجمع التراث غير المادي، وكان من الأطروحات المهمة "المتحف"، فالمتاحف لديها تاريخ طويل في العناية بالتراث المادي، ومن ثمّ يمكن أن تقدّم خدمة مماثلة في حفظ التراث غير المادي،¹² وثمة تجارب عالمية ناجحة لحفظ التراث غير المادي في المتاحف، (Fromm, 2012, 194-196) ولكنّ المملكة لا تملك المتاحف المهيأة لهذه المهمة مادياً وبشرياً وإدارياً.

ومن ثمّ، فالمشروع يتطلّب إنشاء هيئة مستقلة مادياً وإدارياً تحت إشراف متخصصين في اللغة والفلكلور والأدب، ويكون عملها مستمراً، وتتطلّب هذه الهيئة قدرًا من الحرية في تدوين الموروث دون تدخل من أي جهة، لثلاث تغيير ملامح تراثنا وسناته، فيكون مسخاً غير مفهوم. ويتطلّب المشروع ابتداءً أن يكون جامعو التراث من الخبراء في الشأن التراثي، العالمين بالأحداث والحكايات والأمثال واللهجة وأنساق

في حين أنّ الفهرست "أداة من أدوات البحث، ويمثل دليلاً علمياً نسقيًا (Systemic) تُرتب فيه المادة المفهرسة وفق القواعد التي يقتضيه نظام التصنيف أو التبريد في النسق"، (الشامي، 2007، 17) لدراسة أنساق فهرسة وحفظ واسترجاع مواد التراث الشفهي. وقد نبّه الشامي إلى عدم وجود نسق فهرسي عربي متكامل. (الشامي، 24)

تناول الشامي مفهوم الموتيف (Motif) الذي يعدّه الجزيء المتكرر والمستمر الحامل لمعنى أو قيمة ثقافية، ونقل عن ستث طومسون أنّه الوسيلة الفهرسية الوحيدة التي تصلح للتطبيق على المآثورات الشعبية على نطاق عالمي، (الشامي، 41) فالموتيف يحمل شيئاً مميزاً يمكن أن تُميّز به القصة، فالكلب إذا نبج لا يُعدّ نباحه موتيفاً، أما إذا تكلم فيكون كلامه موتيفاً (الشامي، 46) يمكن أن تُضبط به الفهرسة، وكانّ الموتيف يحمل اختراقاً للمألوف أو على الأقل شذوذاً عنه يسهّل عملية الفهرسة. أمّا الطراز القصصي (Tale Type) فهو مفهوم أشمل، إذ قد يحوي الطراز موتيفاً واحداً أو سلسلة من الموتيفات. (الشامي، 46) كما أنّ مصطلح نمط (Pattern) أكثر شمولاً وتعميماً، وبذلك يكون أقل قدرة على التحديد والتعيين الفهرسي. (الشامي، 46) فهذه المفاهيم نشأت وتطوّرت لتصبح

(12) إلا أنّ بعض الباحثين يثير بعض المخاوف من التعديلات التي قد تحدث للملكية الفكرية يجعل بعض الباحثين

يتوقفون، انظر: (Nwabueze, 182)

التفكير في الثقافة المعنوية، وأن يتمتعوا بقدرة منهجية عالية تمكنهم من جرح الرواة وتعديلهم بموضوعية، وكتابة تقارير تفصيلية عن المدونة، إضافة إلى المهارة العالية في إدارة الحوار وتهيئة الجو للحدوث الحر. ومن المهم أن يحدد جامع التراث المجالات التي يمكن أن يستفيد فيها من ضيفه، ثم يعطيه الحرية في الحديث دون اتهام أو ترصد. ولذلك، فمهمة جامع المادة هي الأصبعب والأهم. كما أن التدوين اليوم يحتاج إلى كاميرات رقمية متطورة وأجهزة تسجيل دقيقة تمكن من التقاط دقائق الصوت وحركات الجسد. والمشروع يتطلب مكاناً مناسباً للأرشفة وأنظمة متطورة للتسجيل والفهرسة، كما سبق، لإنشاء قاعدة بيانات ضخمة ودقيقة تُعدّ بعناية، وتُتاح للباحثين وطلاب الدراسات العليا في الجامعات، مع مساعدتهم في الحصول على المعلومات المطلوبة، فالهيئة ينبغي أنت تُركّز على المرحلتين الأوليين بجمع المادة التراثية وفهرستها، ويترك أمر تحليلها للباحثين المعيّنين. وأرى أن من أبرز العوائق التي واجهها جمع التراث غير المادي الإصرار على تنفيذ المراحل الثلاث، مع أن دراسة المادة التراثية ينبغي أن تُوكل إلى المراكز البحثية والجامعات، التي ستقدم لها الهيئة مصادر أصيلة للمعرفة، وهذه بحد ذاتها خدمة جلييلة للعلم والعلماء.

ولا شك أن اضطلاع إحدى مؤسسات المجتمع المدني العلمية بهذا المشروع سيضمن قدرًا أعلى من الحرية، ولكن لي تجربة سابقة غير ناجحة، فقد أعادت مجموعة من الأكاديميين تأسيس جمعية علمية تُعنى باللهجيات والتراث في جامعة الملك سعود عام 2006، وهم: الدكتور فالح العجمي، والدكتور ناصر الحجيلان والأستاذ خالد العميقان، وكاتب هذه السطور، ثم اشتمل مجلس إدارة الجمعية على أساتذة آخرين. وكانت أهم المشروعات التي أعدتها الجمعية مشروع جمع التراث الشفهي وتدوينه، وقدم الدكتور ناصر الحجيلان تصورًا تنفيذيًا لهذا المشروع،⁽¹³⁾ ولكن الجمعية اصطدمت بضعف قدرتها المادية، وعدم اضطلاع القطاع الخاص بمسؤولياته الاجتماعية في دعم هذه المؤسسات العلمية، ورغبة الجهات الحكومية في فرض رقابة صارمة على مثل هذا المشروع.

ونحن اليوم نرى تراثنا يتضاءل بفقدان حامله دون أن يُنقل منهم بشكل علمي منهجي صحيح؛ نحث على أن يُتبنى مشروع شامل لجمع التراث الشفهي بشكل مؤسسي، ولاسيما في هذه الظروف الاقتصادية الملائمة.

(13) وقد استفدت من هذا التصور كثيرًا في إعداد هذه الورقة.

المصادر والمراجع

- 7- الجمحي، محمد بن سلام ، طبقات فحول الشعراء، مع تمهيد للناسر الألماني جوزف هل، مع دراسة عن المؤلف والكتاب لظه أحمد إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ.
- 8- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، بتحقيق محمد علي النجار، ج3، القاهرة: المكتبة العلمية، د.ت.
- 9- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، صفة الصفوة، حققه وعلّق عليه محمود فاخوري، حرّج أحاديثه محمد رؤاس قلعه جي، ج1، ط3، بيروت: دار المعرفة، 1405هـ.
- 10- الداود، بصيرة بنت إبراهيم، "دور الرواية الشفوية في التوثيق التاريخي"، مجلة الدارة، (ع2)، (1422هـ).
- 11- د.م، تقرير عن "مركز التاريخ الشفوي في دارة الملك عبدالعزيز"، مجلة الدارة، عدد خاص عن التاريخ الشفوي، (ع2)، (1422هـ).
- 12- د.م، "أول اجتماع للمجلس الاستشاري لمركز أحمد باديب للدراسات والاستشارات الاعلامية"، جريدة البلاد، (ع 20907)، (7/6/2014). متاح من الموقع:

أولاً: المراجع العربية

- 1- إبراهيم، عبدالله، المطابقة والاختلاف: بحث في نقد المركزيات الثقافية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.
- 2- الأسد، ناصر الدين ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط5، القاهرة: دار المعارف، 1978م.
- 3- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج26، بيروت: إدارة الطباعة المنيرية، د.ت.
- 4- الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ط3، الزرقاء: مكتبة المنار، 1405هـ.
- 5- أونج، والترج، الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنّا عزّالدين، مراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، (ع182)، (فبراير، 1994).
- 6- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، ج1، ط7، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1418هـ.

- 16- السيرافي، القاضي أبو سعيد الحسن بن عبدالله، أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه محمد الزيني، ومحمد عبدالمنعم خفاجي، ط1، القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1374هـ.
- 17- السيوطي، عبدالرحمن جلال الدين، المنهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، ط3، ج1، القاهرة: مكتبة التراث، د.ت.
- 18- الشامي، حسن، "الموتيف والطرز: مفاهيم أساسية لتحديد المأثور الشعبي الشفهي ودراسته"، مجلة الخطاب الثقافي، (ع2)، (2007).
- 19- الصويّان، سعد، "أدب البدو في كتابات الرحالة والمستشرقين"، جريدة الحياة، (ع12272 و12273)، ج1، ج2، (-/21/10/1996).
- 20- ضاهر، مسعود، "التأريخ الأهلي والتأريخ الرسمي: دراسة في أهميّة المصدر الشفوي"، مجلة الفكر العربي، السنة 4، (ع27)، (مايو-يونيو 1982).
- 21- ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، ط22، القاهرة: دار المعارف، د.ت.

<http://albiladdaily.com/ar/content/%D8%A3%D9%88%D9%84-%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9-%D9%84%D9%84%D9%85%D8%AC%D9%84%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D9%8A-%D9%84%D9%85%D8%B1%D9%83%D8%B2-%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A8-%D9%84%D9%84%D8%AF%D8%B1%D8%A7%D8%B3%D8%A7%D8%AA-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%B4%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9>

[استخرج بتاريخ 10 / 7 / 2014]

- 13- الرافي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، راجعه وضبطه عبدالله المنشاوي ومهدي البحقيري، ج1، المنصورة: مكتبة الإيمان، د.ت.
- 14- روبرت بيركس، التاريخ الشفهي حديث عن الماضي، ترجمة عبدالله بن إبراهيم العسكر، الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 2004.
- 15- الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج1، بيروت: دار العلم للملايين، 2002.

22- العاوور، صلاح حسن، "أساسيات اختيار وتقييم الرواة في التاريخ الشفوي"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، (العدد 1)، (رمضان 1423 هـ / تشرين أول 2002م).

28- الفارابي، أبو نصر، كتاب الحروف، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، ضمن سلسلة الفكر العربي والإسلامي، بإشراف كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة القديس يوسف في بيروت، ع46، بيروت: دار المشرق، د.ت.

23- عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن، "منهج جمع الروايات الشفاهية وتوثيقها"، ضمن كتاب مناهج توثيق التراث الشعبي في دولة الإمارات والخليج العربي، "بحوث المؤتمر السنوي الثاني 20-22 ذو الحجة 1420 هـ، ج2، مركز زايد للتراث والتاريخ، (1422 هـ).

29- مدفعي، وليد، من الأسطورة إلى التوحيد، دمشق: دار المختار للطباعة والنشر، 2004.

24- العجمي، فالح بن شبيب، "دور المثل الشعبي في صناعة القيم: قيم التخلي عن المسؤولية نموذجاً"، مجلة الخطاب الثقافي، (ع2)، (2007).

30- همشري، عمر أحمد محمد، "تكنولوجيا المعلومات ومصادر التراث العربي في دول الخليج العربي"، ضمن كتاب مناهج توثيق التراث الشعبي في دولة الإمارات والخليج العربي "بحوث المؤتمر السنوي الثاني" 20-22 ذو الحجة 1420 هـ، ج2، مركز زايد للتراث والتاريخ، (1422 هـ).

25- عجينة، محمد، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط2، بيروت: دار الفارابي، وصفاقس: دار محمد علي، 2005.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- 1- Boniface, Priscilla and Peter J. Fowler, *HERITAGE AND TOURISM in 'the global village'* (London: Routledg, 1993), from the Introduction.
- 2- Deacon, H., Dondolo, L., Murbata, M. and Prosalendis, S. *The Subtle Power of Intangible Heritage: Legal and Financial Instruments for Safeguarding Intangible Heritage*, Cape Town: Human Sciences Research Council, 2004.
- 3- Fromm, Annette B., "Intangible Heritage and the Museum, *New Perspectives on Cultural Preservation, 2012 [by Marilena Alivizatou]*", *International Journal of Intangible Heritage*, (Vol.8), (2013).
- 4- Nwabueze, Caroline Joelle, "The Role of Intellectual Property in Safeguarding Intangible Cultural Heritage in Museums", *International journal of intangible heritage*, (Vol. 8).

26- العسكر، عبدالله بن إبراهيم، "أهمية تدوين التاريخ الشفهي"، مجلة الدرعية، (ع39-40)، (رمضان/1428 هـ).

27- العقيقي، نجيب، المستشرقون، ط3، القاهرة: دار المعارف، 1964.

